# ثروة الدولة العباسية في العصر العباسي الأول

وصلنا إلى موضوع هذا الكتاب بعد هذا العرض لأحوال الدولة الإسلامية حتى العصر العباسي؛ لأن الثروة الإسلامية لم تنضج إلا في هذا العصر وعليه سيكون مدار كلامنا، وتقاس ثروة الدولة المالية بما يبقى في بيت مالها من دخلها بعد النفقات لا بمقدار الدخل على الإطلاق؛ إذ قد يكون الدخل كثيرًا والنفقة أكثر منه وتقع الدولة تحت العجز، فإذا اعتبرنا ذلك كانت ثروة الدولة العباسية في العصر الأول طائلة، وإن كنا لم نقف على ميزانيتها في عهد الخلفاء الخمسة الأولين فلم نعلم مقدار جبايتها في العام مما يعبرون عنه «بارتفاع الدولة» لضياع حساباتها في الفتنة بين الأمين والمأمون، إذ احترقت الدواوين[1] وضاعت الدفاتر كما احترق ديوان بني أمية عام الجماجم[2] ولكننا نعلم مقدار الثروة في أيامهم مما كانوا يختزنونه من المال في أثناء حكمهم.

### (١) الثروة في أوائل الدولة

فالخليفة الأول أبو العباس السفاح لم يحكم إلا أربع سنوات (من سنة ١٣٢–١٣٦هـ/٧٤٩–٧٥٣م) قضاها في الحروب ولم يجمع مالًا، ولما مات لم يجدوا في بيته إلا تسع جبات وأربعة أقمصة وخمسة سراويلات وأربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز[3] وأما المنصور فإنه حكم ٢٢ سنة (١٣٦–١٥٨هـ/٧٥٣–٧٧٤م) وكان رجلًا حازمًا كثير الاحتياط شديد الحرص على المال واختزانه، لا عن بخل ولكنه كان يخاف الفتن،

فلما مات خلف في بيت ماله ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم و١٤٠٠٠٠٠٠ دينار[٤] وبتحويل هذه الدنانير إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهمًا — وهي قيمته في ذلك العصر تقريبًا — كان مجموع ما خلفه المنصور ٨١٠٠٠٠٠٠٠ درهم (والدرهم نحو خمسة وأربعين مليمًا)، فلما دنا أجله أوصى ابنه المهدي قائلًا: «قد جمعت لك في هذه المدينة من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزًا ما دام بيت مالك عامرًا.»[٥] ويدل ذلك على دهاء المنصور واحتياطه للزمان، على أن سيرته كلها تدل على الحزم والعظمة والدهاء، وهو في الحقيقة مؤيد دولة بني العباس، حارب في سبيل سلامتها حروبًا كثيرة أنفق فيها أموالًا طائلة منها ٦٣٠٠٠٠٠٠ درهم أنفقها في حرب الخوارج بإفريقية سنة ١٥٤هـ، فاعتبر ما أنفقه في الحروب الأخرى وهي كثيرة، فضلًا عما كان يبذله لأهله فإنه بذل لجماعة منهم في يوم واحد ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم[٦] وأنفق على بناء بغداد وحدها ٤٨٣٣٠٠٠ درهم[٧] ناهيك بما كان ينفقه على إصلاح الري وبناء الجسور، فإذا اعتبرت ذلك كله هان عليك تقدير ما وصل إلى بيت المال في أيام المنصور بمليار درهم (١٠٠٠٠٠٠٠٠) على الأقل، فإذا قسمت ذلك على سِنِي حُكْمِهِ (٢٢) لحق السنة ٤٥٠٠٠٠٠٠ درهم سوى الأموال التي كان يأخذها من العمال إذا عزلهم واستخرج أموالهم؛ لأنه كان إذا عزل عاملًا أخذ ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه «بيت مال المظالم» وكتب على كل مال اسم صاحبه، ولما أحس بدنو الأجل أوصى ابنه المهدي في ذلك قائلًا: «قد هيأت لك شيئًا ترضي به الخلق ولا تغرم من مالك شيئًا، فإذا أنا مت فادعُ هؤلاء الذين أخذت منهم هذه الأموال التي سميتها المظالم فاردد عليهم كل ما أُخذ منهم، فإنك ستُحمد بذلك إليهم وإلى العامة.»[٨] ففعل المهدي ذلك لما تولى، وقد يتبادر إلى الذهن أن المنصور استكثر المال بما أخذه من أموال بني أمية بعد قهرهم وهي كثيرة، ولكن تلك الأموال ظلت منفردة في خزانة خاصة يسمونها «مال أهل بيت اللعنة».[٩]

وثروة المنصور قد تعد قليلة بالنظر إلى ثروة الرشيد، فقد خلف في بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣هـ) ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم ونيفًا[١٠] ومدة حكمه نحو مدة حكم المنصور غير ما أنفقه الرشيد وما بذله وأسرف فيه وكرمه مشهور، وقد يخطر في البال أن هذا المال تجمع من أيام المنصور فالمهدي فالهادي فالرشيد ولم يجتمع كله في أيام الرشيد، ولكن الواقع أن المهدي أنفق كل ما خلفه المنصور وكل ما جباه في أثناء خلافته (من سنة ١٥٨–١٦٩)؛[١١] لأنه كان كثير السخاء، ولم يحكم الهادي إلا سنة وبعض السنة،

ويروى من فرط سخائه أنه أعطى عبد الله بن مالك أربعمائة بغل موقرة دراهم وغيرها، فلا يعقل أن يجتمع عنده مال يستحق الذِّكْر، فما خلفه الرشيد في بيت المال إنما جمع في أيامه، وإذا قدرناه باعتبار مدة حكمه لم يزد كثيرًا عما تركه المنصور لما بينهما من البون الشاسع في السخاء؛ فقد كان الرشيد كريمًا حتى إنه لم يكن يعرف للمال قيمة[١٢] وكان المنصور متهمًا بالبخل[١٣] ناهيك بما كان من أمر البرامكة في أيام الرشيد وما امتلكوه من الضياع وبذلوه من الأموال مما هو معلوم.

ولما مات الرشيد سنة ١٩٣ تنازع ولداه الأمين والمأمون على الخلافة وتحاربا، وكان الأمين في بغداد وقد أتته أمه زبيدة بخزائن أبيه[١٤] والمأمون في خراسان ودامت الحرب بينهما بضع سنوات أنفق الأمين في أثنائها كل ما كان في بيت المال مع ما أنفقه في خاصته؛ لأنه انقطع في أثناء خلافته إلى اللهو والخمر وبذل الأموال في طلب الملهين وضمهم إليه، وأجرى عليهم الأرزاق واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقسم الأموال والجواهر في خواصه من الخصيان والنساء.[١٥]

فلما قتل الأمين سنة ١٩٨ استوثق الأمر في المشرق والمغرب للمأمون، وزاد نفوذ الخراسانيين في أيامه؛ لأنهم هم الذين أعادوا الملك إليه، واستتبت السكينة في المملكة العباسية واشتغل المأمون في نقل العلوم إلى العربية، وسنأتي على تفصيل ذلك في جزء آخر من هذا الكتاب خاص بالعلم والأدب.

أما الثروة في أيام المأمون فإنها اتسعت لاستكانة الناس إلى العمل واجتماع القلوب، ومدة حكمه ٢٢ سنة نحو مدة أبيه الرشيد وأبي جده المنصور، ولكننا لم نقف على مقدار ما خلفه في بيت المال عند وفاته، ولعل خبر ذلك ضاع في جملة ما ضاع من هذا القبيل لقلة عناية مؤرخي تلك الأيام بهذه الأبحاث.

على أن ادخار المال أصبح بعد الخلفاء الراشدين من الأمور المألوفة عند ملوك المسلمين في كل الممالك والعصور، قيل إن عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس الشهير (تولى سنة ٣٠٠–٣٥٠) جمع في بيت ماله إلى سنة ٣٤٠هـ نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار[١٦] وكانت جباية الأندلس في أيامه ٥٤٨٠٠٠٠ دينار ومن السوق والمستخلص ٧٦٥٠٠٠ دينار فالجملة ٦٢٤٥٠٠٠ ما عدا أخماس الغنائم فإنها كانت كثيرة[١٧] وكان الناصر ينفق على جنده ثلث هذا المال فقط وينفق ثلثها على شئون الدولة ويدخر الباقي[١٨] وقد بالغ ابن خلدون في مقدار ما خلفه الناصر في بيت المال فجعله ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار،

ولم يذكر ذلك جزافًا ولا خامر كلامه شك بل هو حولها إلى الوزن فكانت على تقديره ٥٠٠٠٠٠ قنطار[١٩] وهو قول بعيد لا ندري كيف تطرق إلى قلم هذا الفيلسوف، ويدل على بعده عن المعقول أن ابن حوقل وهو من معاصري تلك الدولة قدَّر ما اجتمع في بيت مال الحكم المستنصر بن الناصر بعد موت أبيه من خدمه والمصادرين وغيرهم فلم يزد على ٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار وعد ذلك كثيرًا لم يجتمع لدولة من الدول في ذلك العصر[٢٠] وكانت بغداد يومئذ في عصر الاضمحلال وخلفاؤها وقوادها ووزراؤها يتقاتلون على المال ويصادر بعضهم بعضًا.

أما في أيام المأمون فالمال الذي كان يجتمع من صوافي الجباية في بيت المال كل عام لم يجتمع في دولة من دول المسلمين ولا غيرهم، وقد وقفنا على مقدار تلك الجباية في مقدمة ابن خلدون نقلًا عن «جراب الدولة»[٢١] وهي أقدم جريدة أو قائمة وصلت إلينا من حسابات الدولة الإسلامية، تليها جريدة أخرى نقلها قدامة بن جعفر وأخرى رواها ابن خرداذبه، وكلها لا تتجاوز أواسط القرن الثالث للهجرة، وسنذكر كلًّا منها ونقابل بينها ليتبين لنا مقدار تلك الثروة.

ولكننا نرى قبل التقدم إلى ذكر الجباية أن نأتي على فذلكة في جغرافية المملكة الإسلامية في أيام المأمون لتتضح نسبة أعمال تلك المملكة بعضها إلى بعض، وإلى عاصمة المملكة العباسية.

## (٢) جغرافية مملكة الإسلام في عصر المأمون

### (٢-١) حدودها

يحدها من الشرق أرض الهند بما يلي حوض نهر السند شرقًا وبعض الصين وبحر فارس، ومن الغرب مملكة الروم، ويعبر عن تلك الحدود الآن بالبحر الأسود وآسيا الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار، ومن الشمال بلاد السرير والخزر واللان في آسيا وجبال البيرينيه في أوربا.

وفي خريطة هذه الأيام بلاد سيبيريا وبحر قزوين وبحر الروم، ومن الجنوب بحر فارس وما يلي مصر من بلاد النوبة وقد بينا مساحتها وعدد سكانها في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وتقسم هذه المملكة إلى عدة أعمال تختلف مساحتها ونسبتها بعضها إلى بعض باختلاف الدول والأزمنة، وسنبين ما كانت عليه حوالي عصر المأمون نقلًا عن جغرافيي

العرب في تلك الأيام وخصوصًا الإصطخري وابن حوقل وابن الفقيه، فهي تُقَسَّمُ إلى سبعة وعشرين إقليمًا، منها سبعة في المغرب وعشرون في المشرق؛ وهي:

| أقاليم المغرب | أقاليم المشرق | | |
|---|---|---|---|
| ديار العرب | العراق | أرمينية | قومس |
| بحر فارس | خوزستان (الأهواز) | أذربيجان | مفازة خراسان |
| ديار المغرب | فارس | بلاد الران | سجستان |
| مصر | كرمان | الجبال | ما وراء النهر |
| الشام | مكران | الديلم | خوارزم |
| بحر الروم | طوران | طبرستان | |
| الجزيرة | السند | جرجان | |

وإليك وصف كل من هذه الأقاليم بما يمكن من الإيجاز:

## (٢-٢) ديار العرب

وهي جزيرة العرب يحيط بها بحر فارس من عبادان — وهو مصب ماء دجلة في البحر — فيمتد على البحرين حتى ينتهي إلى عمان، ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي إلى سواحل اليمن إلى جدة، ثم يمتد إلى مدين حتى ينتهي إلى أيلة (وهي إيلات الحالية على خليج العقبة)، فهم يريدون ببحر فارس كل ما يحيط ببلاد العرب من المياه، ولكنهم يعبرون عن الجزء الممتد من باب المندب إلى أيلة ببحر القلزم وهو البحر الأحمر، ويحدها من الغرب الشمالي برًّا بلاد الشام وفلسطين بخط منحنٍ يمتد من أيلة إلى البحيرة المنتنة (أي البحر الميت) فالشراة فالبلقاء فأذرعات وسلمية فالخناصرة إلى الفرات إلى الرقة وقرقيسيا والرحبة فالكوفة إلى البطائح فواسط إلى عبادان.

وتقسم ديار العرب إلى الحجاز وفيه مكة والطائف والمدينة اليمامة ومخاليفها، ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين، وبادية العراق، وبادية الجزيرة، وبادية الشام،

واليمن المشتملة على تهامة، ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن.

## (٢-٣) بحر فارس

ويراد به عندهم كل البحور المحيطة ببلاد العرب من مصب ماء دجلة في العراق إلى أيلة[٢٢] فيدخل فيه ما نعبر عنه اليوم بخليج فارس وبحر العرب وخليج عدن والبحر الأحمر وخليج العقبة ولا يهمنا وصفه في هذا المقام.

## (٢-٤) ديار المغرب

يراد بها في اصطلاحهم كل سواحل أفريقيا الشمالية وراء حدود مصر غربًا، ويدخل في ذلك:

(١) برقة.
(٢) إفريقية وهي تونس.
(٣) تاهرت في الجزائر.
(٤) طنجة والسوس وزويلة في مراكش.

أما برقة فهي مدينة وسط، واقعة في مستوٍ من الأرض خصبة تطيف بها البادية يسكنها طوائف من البربر، وبينها وبين إفريقية مدينة طرابلس الغرب، وهي من عمل إفريقية مبنية من الصخر ويليها المهدية ثم تونس، وهي كبيرة خصبة ثم القيروان وهي عاصمة إفريقية وأكبر مدينة فيها واقعة في البر، وكذلك تاهرت فإن عاصمتها تاهرت، ومن مدنها أيضًا سجلماسة وهي بعيدة في الصحراء.

ويجعلون الأندلس جزءًا من بلاد المغرب لأنها كانت تابعة لها عند فتحها، والأندلس (إسبانيا) مملكة كبيرة عاصمتها قرطبة وحدودها معروفة، ومن أشهر مدنها جيان وطليطلة وسرقسطة ولاردة ووادي الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة وإستجة ورية، وعلى سواحلها شنترين ومالقة وجبل طارق وغير ذلك.

## (٢-٥) مصر

وحدود مصر في تلك الأيام مثل حدودها اليوم تقريبًا ويلحقون بها البجة والنوبة إلى حدود البحر الأحمر فالعقبة.

## (٢-٦) الشام

ويراد بها سوريا على العموم وتقسم إلى سبعة أقسام:

(١) جند فلسطين.
(٢) جند الأردن.
(٣) جند حمص.
(٤) جند دمشق.
(٥) جند قنسرين.
(٦) العواصم.
(٧) الثغور.

فجند فلسطين أول أجناد الشام غربًا، يحده من جهة مصر رفح، ومن الشمال اللجون وفيه يافا وأريحا وبيت لحم وغزة والشراة والبحيرة المنتنة وغوربيسان ونابلس، وكانت قصبة فلسطين الرملة ويليها في الكبر بيت المقدس.

وجند الأردن قصبته مدينة طبرية.

وأما جند دمشق فقصبته مدينة دمشق، وهي أعظم مدن الشام على الإطلاق وهي معروفة.

وأما جند حمص فقصبته مدينة حمص وهي مشهورة، ويتبعها الطرطوس وسلمية بطرق البادية وشيزر وحماة وكانتا صغيرتين.

وجند قنسرين قصبته حلب وهي مشهورة إلى اليوم، وكان لها شأن كبير لوقوعها في طريق العراق إلى الثغور والعواصم، ومن مدنها مدينة قنسرين وهي صغيرة ومعرة النُّعمان.

وأما العواصم فيراد بها أعالي الشام وراء حلب إلى إسكندرونة وقصبتها أنطاكية، وهي تلي دمشق في النزاهة، وكانت عاصمة الشام على عهد الروم، وكان عليها سور ضخم للغاية قيل إن دوره للراكب يومين، ومن مدن العواصم بالش على ضفة الفرات ومنبج في البرية.

أما الثغور فهي ما وراء العواصم إلى حدود جبل طورس في آسيا الصغرى، ومن مدنها الشهيرة سميساط على الفرات وملطية وهي أكبر الثغور، وحصن منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة وأذنة وطرسوس، وقد يدخلون الثغور في العواصم ويطلقون عليها جميعًا اسم العواصم، والمراد بالثغور عندهم (أي عند المسلمين) المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم، ولذلك كان عندهم ثغور شامية أي الحدود مما يلي الشام، وحدود جزرية أي الحدود مما يلي الجزيرة.

## (٢-٧) بحر الروم

ويراد به وصف ما فيه من الجزائر مما لا دخل له في غرضنا الآن.

## (٢-٨) الجزيرة

بين دجلة والفرات بلاد واسعة تعرف بما بين النهرين، يسمى القسم الشمالي منها: الجزيرة، والجنوبي: العراق، والفاصل بينهما تكريت على دجلة، والأنبار أو هيت على الفرات، ويلحق الجزيرة بعض البلاد وراء الضفتين في بعض المواضع، يحدها من الشمال ميافارقين وما يليها غربًا إلى الفرات قرب ملطية، ومن الجنوب هيت على نهر الفرات وتكريت على دجلة، ويحدها من الغرب الجنوبي بادية الجزيرة ومن الشرق الجبال وأذربيجان.

والجزيرة بلاد خصبة جدًّا مثل بلاد العراق، ومن أشهر مدنها الموصل على دجلة من جهة الغرب وسنجار في وسط البرية بديار ربيعة، ليس في الجزيرة بلد فيها نخل مثلها، ونصيبين وكانت أنزه بلد في الجزيرة، ودارا وهي صغيرة، ورأس عين مدينة مستوية الأرض في دار مضر، وآمد في أعالي دجلة، وجزيرة ابن عمر على دجلة أيضًا، ومن مدنها على الفرات الرقة وقرقيسيا والحديثة وهيت، وفي أواسطها أيضًا حران وهي مدينة الصابئين، والرها وهي قديمة مشهورة بالمدارس والعلوم أيام السريان، وسروج مدينة خصبة كثيرة الأعناب.

وفي الجزيرةِ مفاوزُ يسكنها قبائل من ربيعةَ ومضر، تقيم ربيعة في الشمال الشرقي ومضر في الجنوب الغربي، وقد كانوا هناك قبل الإسلام.

وهم أهل خيل وغنم وإبل على أنهم متصلون بالقرى والمدن فهم بادية حاضرة، وتكريت آخر حدود الجزيرة على دجلة وكان أكثر أهلها نصارى.

## (٢-٩) العراق

هو القسم الجنوبي من بين النهرين وما يجاوره، طوله من تكريت على دجلة من الشمال إلى عبادان على بحر فارس في الجنوب، وعرضه من قادسية الكوفة في الغرب إلى حلوان في الشرق، ومحيطه إذا بدأنا من تكريت نسير شرقًا إلى شهرزور ثم جنوبًا شرقيًّا إلى حلوان فالسيران والصيمرة فحدود السوس إلى عبادان، ثم ينعطف إلى البصرة ومنها صعدا نحو الشمال والغرب في البادية على سواد البصرة وبطائحها إلى الكوفة، ثم على الفرات إلى الأنبار ومن الأنبار شمالًا إلى تكريت، ويسمى ما بين دجلة والفرات السواد، هذه حدود العراق في إبان التمدن الإسلامي، وهي تختلف عن حدوده الآن وخصوصًا لأن مجاري الأنهر تغيرت، وسنعود إلى تفصيل ذلك في مكان آخر.

وأشهر مدن العراق بغداد وهي قصبته، وعاصمة المملكة الإسلامية في إبان مجدها، بناها المنصور، والبصرةُ وهي مدينة عربية، بناها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب، وللبصرة بطائح سيأتي تاريخها في موضع آخر.

وواسط مدينة عربية أيضًا بناها الحجاج في وسط السواد، والكوفة غربي الفرات وهي من بناء العرب، ومن مدن العراق النهروان شرقي دجلة على نهر اسمه النهروان جف الآن، وحلوان في آخر حدود العراق شرقًا، وكانت مدينة كبيرة بقرب الجبل، والحيرة قرب الكوفة والأبلة قرب البصرة.

## (٢-١٠) خوزستان

هي شرقي العراق بينها وبين فارس يحدها من الشمال كور الجبال، ومن الشرق فارس وأصبهان، ومن الغرب العراق، ومن الجنوب خليج فارس، عاصمتها مدينة الأهواز، وإليها تنسب خوزستان فيقال لها الأهواز، وتقسم إلى كور أولها كورة الأهواز، ثم جندي سابور والسوس وتستر ورامهرمز وسرق وعسكر مكرم، وقصبة كل كورة المدينة المسماة باسمها.

## (٢-١١) بلاد فارس

وهي واقعة بين خوزستان في الغرب وكرمان في الشرق، ويحدها شمالًا أصفهان وبادية خراسان، ومن الجنوب والغرب بحر فارس، وتقسم بلاد فارس إلى خمس كور أكبرها كورة إصطخر، قصبتها إصطخر، ثم كورة أردشير خُرة وقصبتها جور، وفيها أيضًا مدينة شيراز وهي عاصمة بلاد فارس بها دواوينها ودار الإمارة، ثم كورة دارابجرد وكورة أرجان قصبتها مدينة أرجان، ثم كورة سابور وهي أصغر كور فارس وفيها مدينة كازرون، ومن بلاد فارس بقاع يقيم فيها قبائل من الأكراد يزيدون على مئة حي يتعيشون بالمرعى والحرث في بقاع يقال لها رموم، ويقدرون تلك القبائل في بلاد فارس وحدها بنحو ٥٠٠٠٠٠ بيت ينتجعون المراعي في المشتى والمصيف على مذاهب العرب، وقد يكون في البيت الواحد من الأرباب والأجراء والرعاة نحو عشرة رجال، فإذا اعتبرنا معدل الرجال في كل بيت خمسة كان عدد الرجال الأكراد ٢٥٠٠٠٠٠ رجل، وباعتبار ما يلحقهم من النساء والأولاد يزيد عددهم على عشرة ملايين.

## (٢-١٢) كرمان

هي أكبر من فارس واقعة بين فارس في الغرب ومكران وسجستان في الشرق، ويحدها من الشمال مفازة خراسان ومن الجنوب بحر فارس، وأشهر مدنها الشيرجان وبم وجيرفت وهرموز.

## (٢-١٣) مكران

هي شرقي كرمان وإلى شرقيها طوران وبعض بلاد السند، وفي الشمال سجستان وبلاد الهند وفي الجنوب بحر فارس، وهي أكبر من كرمان ومن مدنها التيز وكيز ودرك وراسك.

## (٢-١٤) طوران

هي أصغر من فارس واقعة بين مكران في الغرب وبلاد السند في الشرق والشمال وبحر فارس في الجنوب، وأشهر بلادها محالي وكيزكانان وقصدار.

### (٢-١٥) السند

والسند آخر حدود مملكة الإسلام في الشرق وأشهر مدنها المنصورة وهي بلسان الهنود برهماناباذ ومنها الديبل على شاطئ البحر والملتان وغيرها، أما المنصورة فإنها واقعة على خليج من نهر مهران يحيط بها في شبه الجزيرة وأهلها مسلمون، ويطلق الإصطخرى على مكران وطوران والسند اسم السند.

### (٢-١٦) أرمينية

هي في أعالي مملكة الإسلام فوق الجزيرة تحدها من الشرق أذربيجان والران، ومن الغرب بلاد الروم (في آسيا الصغرى)، ومن الشمال جبال القبق (القوقاس)، ومن الجنوب الجزيرة قصبتها ديبل وفيها دار الإمارة والنصارى بها كثيرون، ومن مدنها خلاط وأرزن وقاليقلا وميافارقين، ويعدها بعضهم من الجزيرة، وهكذا فعلنا.

### (٢-١٧) أذربيجان

في شرقي الجزيرة يحدها من الغرب الجزيرة وأرمينية ومن الشرق بحر الخزر وبلاد الديلم ومن الشمال بلاد الران ومن الجنوب كور الجبال، عاصمتها مدينة أردبيل، وفيها العسكر ودار الإمارة، طولها ميلان في ميلين، ويلي أردبيل في الكبر المراغة وكانت قبلًا دار الإمارة، وتليها أرمية على شاطئ بحيرة الشراة، ومن مدنها سلماس ومرندوشيز.

### (٢-١٨) بلاد الران

هي شمال أذربيجان، يحدها من الشرق بحر الخزر ومن الغرب أرمينية، ومن الشمال جبل قبق ومن الجنوب أذربيجان، أكبر مدنها مدينة برذعة ثم تفليس والباب، ومنها بيلقان والشاوران وغيرها.

### (٢-١٩) الجبال

يراد بالجبال جبال فارس وهي تقسم إلى كور أشهرها ماه الكوفة وهي الدينور، وماه البصرة وتسمى نهاوند، ويحد الجبال من الشرق مفازة خراسان وفارس، ومن الغرب العراق والجزيرة، ومن الشمال أذربيجان والديلم والري وقزوين، ومن الجنوب خوزستان والعراق، وهي تشتمل على مدن مشهورة أعظمها همذان والدينور وماسبذان وأصبهان وقم وقاشان ونهاوند واللور والكرج وقزوين وشهرزور وحلوان، مساحة همذان فرسخ في فرسخ وكان لها سور أبوابه من حديد، والدينور (ماه الكوفة) نحو ثلثيها، وأصبهان مدينتان بينهما ميلان، ونهاوند (ماه البصرة) واقعة على جبل بناؤها من طين، وحلوان مدينة في سفح الجبل المطل على العراق، وشهرزور قريبة من العراق، وقزوين في أعالي فارس وهي ثغر بلاد الديلم، وقُم مدينة عليها سور وهي خصبة، وقاشان مدينة صغيرة.

### (٢-٢٠) الديلم

هي جبال مطلة على بحر الخزر (بحر قزوين) يحدها من الجنوب قزوين وبعض أذربيجان، ومن الشمال بحر الخزر ومن الشرق قومس ومن الغرب أذربيجان، وأهل الديلم صنفان: سكان الجبال وسكان السهول، ومن توابعها الري وأبهر وزنجان والطالقان وقزوين والرويان.

### (٢-٢١) طبرستان

وهي تلي الديلم شرقًا واقعة على بحر الخزر أيضًا يحدها من الشرق جرجان ومن الغرب الديلم، أكبر مدنها آمل وهي مركز الولاية وسارية وهي بلاد كثيرة المياه ودماوند (أو دنباوند).

### (٢-٢٢) جرجان

هي شرقي طبرستان وشماليها، يحدها من الشمال تركستان ومن الجنوب قومس ومن الشرق خراسان ومن الغرب بحر الخزر، أكبر مدنها مدينة جرجان وهي أكبر من آمل، ثم أستراباد في الجنوب ودهستان على شواطئ البحر.

## (٢-٢٣) قومس

هي جنوبي جرجان وطبرستان وهما يحدانها من الشمال، وأما من الجنوب والشرق فحدودها مفازة خراسان، ومن الغرب تحدها بلاد الري قصبتها مدينة الدَّامَغَان.

## (٢-٢٤) مفازة خراسان

هي بادية واقعة في أواسط بلاد المشرق يحدها من الشمال قومس ومن الجنوب بلاد فارس وسجستان، ومن الشرق سجستان وخراسان، ومن الغرب الجبال والري، وهي أقل من بادية العرب سكانًا، وبعض هذه المفازة تابع لخراسان والبعض الآخر تابع لعملي فارس وكرمان، وهي وعرة ويصعب سلوكها بالخيل لقلة الماء فيها.

## (٢-٢٥) سجستان

هي واقعة في شمالي مكران يحدها من الشرق مفازة بينها وبين السند، ومن الجنوب مكران، ومن الشمال أرض الهند، ومن الغرب مفازة خراسان، أكبر مدنها زرنج وبست والطاق وغيرها.

## (٢-٢٦) خراسان

هي من أخصب بلاد المشرق وأوسعها يحدها من الشرق الشمالي ما وراء النهر، ومن الشرق الجنوبي بلاد السند وسجستان، ومن الشمال خوارزم وبلاد الغز في تركستان، ومن الجنوب مفازة خراسان وفارس، ومن الغرب قومس، وتقسم خراسان إلى كور أعظمها نيسابور ومرو وهرات وبلخ يليها كور قوهستان وطوس ونَسَا وأبيورد وسرخس واسفزار وبوشنج وياذغيس وكنج — رستاق ومرورود وجوزجان وطخارستان وزم وآمل.

عاصمة خراسان مدينة نيسابور وهي أعظم مدنها جميعًا وتسمى أيضًا أبو شهر، واقعة في أرض سهلة أبنيتها من طين، سعتها فرسخ في فرسخ، ومدينة مرو وتعرف بمرو الشاهجان وهي قديمة البناء، ومدن خراسان كثيرة وبلادها آهلة وتربتها خصبة وقد كان للمسلمين منها ارتفاع عظيم.

### (٢-٢٧) ما وراء النهر

هي آخر بلاد الإسلام شمالًا شرقيًّا، يحدها من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند، ومن الغرب الجنوبي خراسان يفصل بينهما نهر جيحون، ومن الشمال الغربي خوارزم، ومن الجنوب طخارستان، وهو من أخصب أقاليم الإسلام وأنزهها وأكثرها خيرًا، وأشهر نواحيها بخارى وسمرقند وكش ونخشاب وبيكند والساغانيان وفرغانة والسغد والشاش وأشروسنة وخوجند.

### (٢-٢٨) خوارزم

ويعدها الإصطخري تابعة لما وراء النهر فإنها مستطيلة الشكل تمتد على ضفاف نهر جيحون في الشمال، يحدها من الشمال بحر خوارزم، ومن الجنوب خراسان وبلاد الصفد وتحدق بهذا الإقليم المفاوز من الشرق والغرب، قصبته مدينة خوارزم.

هذه خلاصة جغرافية المملكة الإسلامية حوالي عصر المأمون ونسبة أقاليمها بعضها إلى بعض تمهيدًا لما سنذكره من جباية المملكة العباسية، وهي تشمل كل هذه الأقاليم إلا الأندلس، ولم يكن كل إقليم منها قائمًا بذاته يؤدي خراجه باسمه، فإن بعض هذه الأقاليم كان داخلًا في عمل البعض الآخر، وقد اختلف ذلك باختلاف الأعصر، فربما ورد في قائمة الجباية ذكر خراج إقليم، ويكون المراد خراج إقليمين أو أكثر مما دخل تحت سيطرة عامله؛ إذ كثيرًا ما كان الخلفاء يولون العامل عدة أقاليم يسمونها باسم واحد منها لأسباب لا يمكن حصرها.

وقبل الشروع في إيراد خراج الأعمال العباسية واستخراج ارتفاع الدولة، لا بد لنا من بيان علاقة تلك الأقاليم أو الأعمال ببغداد عاصمة المملكة بالنظر إلى توريد الخراج.

### (٣) علاقة الأعمال العباسية بالعاصمة

قلنا في كلامنا عن ولاية الأعمال في الجزء الأول إنها كانت في بادئ الرأي أشبه بالاحتلال العسكري منها بالتملك، وكان العمال في عهد الراشدين هم قواد الجند الذين فتحوا تلك الأقاليم، وواجباتهم مراقبة سير الأحكام في البلاد التي افتتحوها وإقامة الصلاة واقتضاء الخراج، وظلت أعمال الحكومة في داخل البلاد المفتوحة جارية على ما كانت عليه قبل الفتح، وكان الذين يباشرون جباية الخراج ويتولون أعمال الحكومة في البلاد موظفين

من أهلها الأصليين، فإذا اجتمع الخراج والجزية أنفقوا من مجموعهما ما تحتاج إليه ناحيتهم من نفقات، ودفعوا الباقي إلى الحاكم المسلم، وهذا يدفع منه رواتب الذين معه من القواد والجند وما يقتضيه إصلاح الري من إقامة الجسور والسدود ويرسل الباقي إلى بيت المال في عاصمة الخلافة.

ذلك كان شأن الأعمال الإسلامية في زمن الراشدين، ولما أفضى الأمر إلى بني أمية واضطر معاوية إلى اكتساب الأنصار زاد في نفوذ العمال وجعل بعض الأعمال طعمة لهم، فازدادوا استقلالًا في أعمالهم، ثم دعت الأحوال إلى تمكين المسلمين من البلاد المفتوحة واستلام أزِمَّة الأحكام بأيديهم وتحويل الدواوين إلى لسانهم في أيام عبد الملك ومن جاء بعده — إلا جباة الخراج فإنهم ظلوا من أهل البلاد الأصليين: القبط في مصر، والدهاقين في العراق وفارس — وظل العمال يقبضون صوافي الخراج والجزية وينفقون النفقات اللازمة ويرسلون الباقي إلى بيت المال في دمشق، وهو ما يعبرون عنه بارتفاع الجباية، وإذا لم تكفِ الجباية للقيام بالنفقات طالبوا الخليفة بالباقي.[٢٣]

ولما تولى بنو العباس ظلت الأعمال على نحو هذا الشكل، ويهمنا في هذا المقام تتبع تلك العلاقة من حيث الجباية فقط، والظاهر أن العمال زادوا استقلالًا من هذا القبيل عما كانوا عليه في أيام بني أمية، حتى آل الأمر أخيرًا إلى تضمين الخراج؛ أي تقبيله، وهو أن يُوَظَّفَ على العامل مال معين يدفعه في السنة إلى بيت المال في بغداد، وهو يتولى قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق ما ينفقه كما يشاء لا يطالبه الخليفة إلا بالمال المضروب، ويكون ذلك في إمارة الاستيلاء، كذلك فعل الرشيد مع إبراهيم بن الأغلب عامله على إفريقية، وكان هذا الإقليم عالة على الحكومة يحمل إليه من مصر كل سنة ١٠٠٠٠٠ دينار معونة له، فلما تولاه ابن الأغلب تنازل عن هذا المال وبذل أن يحمل كل سنة ٤٠٠٠٠ دينار[٢٤] وفعل الرشيد نحو ذلك ببرقة فإنه جعلها قانونًا قائمًا، فوجه بمولى له فوزع خراج الأرض بأربعة وعشرين ألف دينار[٢٥] وكذلك فعل المأمون مع عبد الله بن طاهر، فإنه وظف عليه خراج خراسان وما يتبعه سنة ٢١١هـ و٢١٢هـ قدرًا معينًا سيأتي ذكره، وقِسْ عليه ما قَبِله الفضل بن مروان من فارس والأهواز وما تقبله عمران بن موسى من السند[٢٦] ثم صار التوظيف المذكور ضمانًا وتكاثر حتى آل إلى استقلال الأمراء بولاياتهم.

وجملة القول أن المال الذي كانوا يعبرون عنه بخراج البلد الفلاني إنما يراد به ما يرد على بيت المال من خراج ذلك البلد بعد أداء أعطيات الجند المقيم فيه ونفقات الجباية

وإصلاح الري وسائر الكلف[٢٧] أو بطريق التوظيف كما تقدم، فما يجتمع من جبايات الأعمال يعبرون عنه بارتفاع الدولة أو جباية الدولة؛ أي مجموع صافي الدخل، لا ينفق منه إلا على موظفي الدواوين ورجال الدولة في بغداد غير ما يأخذه الخليفة وأهله مما سيأتي تفصيله، وقد صرح ابن خلدون في مقدمة كلامه عن مقدار تلك الجباية في أيام المأمون بقوله: «ما يحمل إلى بيت المال ببغداد في أيام المأمون من جميع النواحي نقلته عن جراب الدولة.»[٢٨] فبالقياس على ما تقدم يعتبر كل ما يرد من الكلام عن ارتفاع الدولة أنه صافي أموال الجباية.

## (٤) جباية الدولة العباسية في العصر الأول

فلنتقدم بعد هذا التمهيد إلى تفصيل جباية الدولة العباسية في أيام المأمون باعتبار ما يرد من كل عمل في السنة، والتوفق إلى ذلك نادر في تاريخ الإسلام؛ لأن القوم قلما يدوِّنون غير حوادث الحرب والفتح والثورات وما إلى ذلك.

أما قوائم ابن خلدون وقدامة وابن خرداذبة فقد عثرنا عليها عرضًا، وهي:

(١) **قائمة ابن خلدون**: هي أقدمها كلها، وقد أوردها ابن خلدون في مقدمته في عرض كلامه عن «أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها»، وقال إنه نقلها عن جراب الدولة، وفيها مقدار الخراج الذي كان يرد على بيت المال في بغداد في أيام المأمون، وقبل تحقيق ذلك الزمن نوجه التفات القارئ لما تطرق إلى هذه القائمة من الخطأ بتوالي الأعوام، وقد تصفحنا النسخ المطبوعة من مقدمة ابن خلدون في مصر والشام، فرأينا خطأ في أسماء بعض البلاد الواردة في تلك القائمة، نظنه وقع من النساخ لتشابه في أشكال بعض الألفاظ، فلا بد من التنبيه إلى ذلك وإصلاحه قبل إيراد القائمة المذكورة؛ لأن الخطأ اللفظي المشار إليه يجر إلى الخطأ المعنوي لوقوعه في أسماء البلاد أو الأقاليم التي حمل الخراج منها، وهاك إصلاحها:

(١) كنكر:[٢٩] هي لفظة لا معنى لها في هذا المقام، وصوابها «كسكر»، وهو إقليم من أقاليم السواد.

(٢) طبرستان والروبان ونهاوند:[٣٠] فالروبان بالباء صوابها «الرويان» بالياء، وهي من إقليم الديلم وقد ذكرناها في محلها، ونهاوند قصبة كورة ماه البصرة من كور الجبال

كما تقدم، ونظرًا لبعدها من طبرستان والرويان، فالغالب أن يكون المراد بها بلدًا آخر قريبًا من هناك، نظنها «دماوند»، وهي من كور طبرستان.

(٣) ما بين الكوفة والبصرة:[٣١] لم نرَ في سائر القوائم ولا في غيرها من التقاويم كورة بهذا الاسم، وقد لاحظ ذلك البارون فون كريمر المؤرخ الألماني، ولكنه حسبها كورة من كور السواد واقعة وراء الفرات بين الكوفة والبصرة، دخلت في القوائم الأخرى باسم آخر،[٣٢] والصحيح على ما نرى أن النُّساخ أخطأوا في قراءتهم «مابين»، وصوابها «ماها» أو «ماهين»: مثنى «ماه»، فيكون المراد «ماها البصرة والكوفة» وهما كورتان من كور الجبال، قصبة الأولى نهاوند، وقصبة الثانية الدينور — كما تقدم — ويؤيد ذلك سقوط هاتين الكورتين من قائمة ابن خلدون بالكلية.

(٤) ماسبذان والدينار:[٣٣] ماسبذان من كور الجبال، تقدم ذكرها، وأما «الدينار» فلا مسمى لها في بلاد الإسلام، وقد يتبادر إلى الذهن أنها تحريف «الدينور» قصبة ماه الكوفة لو لم نكن قد وقفنا على اسم الماهين معًا في هذه القائمة، فهي على الغالب مبدلة من «الريان» وهي كورة بقرب كسكر في العراق.

وهناك غلط نسخي في تعيين مقدار الخراج في بعض الأقاليم صوابه ظاهر، مثل قوله عن خراج كور دجلة أنه عشرون ألف ألف درهم وثمانية دراهم، والعادة أن لا يدونوا في الديوان آحاد الدراهم[٣٤] فالغالب أن يكون صوابها (وثمانمائة ألف درهم)، وكذلك قوله عن جباية الأهواز إنها خمسة وعشرون ألف درهم، والصواب ٢٥ ألف ألف درهم؛ لأنها نحو ذلك في القائمتين الأخريين، وكقوله في طبعة بولاق عن خراج قومس «ألف ألف مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة» ونظن الصواب: «ومن نقر الفضة ألف»، فيكون خراجها ١٥٠٠٠٠٠ درهم و١٠٠٠ من نقر الفضة، وكقوله عن العسل الوارد من الموصل إنه ٢٠٠٠٠٠٠٠ رطل، والأقرب إلى الصواب أن يكون ٢٠٠٠٠ رطل فقط، ومن هذا القبيل خراج مصر، فقد ورد هناك أنه «ألف ألف ألخ»، والصواب على ما نرى «ألفا ألف ألخ» بالقياس على جبايتها في ذلك العصر، والخطأ إنما وقع في النسخ لتشابه اللفظين خطًّا.

أما زمن هذه القائمة فقد عينه ابن خلدون صريحًا فقال إنه في أيام المأمون، ولكنه لم يعين السنة، والمأمون حكم ٢٢ سنة من سنة ١٩٦–٢١٨، وحساب بيت المال في بغداد احترق في الفتنة بين الأمين والمأمون ثم لم يدون الحساب إلا بعد سنة ٢٠٤هـ.[٣٥] فالقائمة

المذكورة كتبت في ما بين ٢٠٤ و٢١٨هـ، ونظرًا لاختلاف خراج خراسان فيها عما وظفه المأمون على ابن طاهر سنة ٢١١ و٢١٢هـ، فالأرجح أنها كتبت بين ٢٠٤ و٢١٠هـ.

ورأينا للبارون فون كريمر المذكور انتقادًا على تاريخ قائمة ابن خلدون، خلاصته: أنها كتبت قبل عصر المأمون بعشرات من السنين، بحيث تتصل بعصر المهدي أو الهادي أي بين سنة ١٥٨ و١٧٠هـ، ومن أدلته على ذلك «أنه ورد فيها ذكر خراج السند وإفريقية وكانتا في أيام المأمون قد استقلتا عن سلطة بغداد، ولم يذكرهما قدامة ولا ابن خرداذبة».

والبارون فون كريمر لا يستخف برأيه في تاريخ الإسلام وتمدنه وآدابه؛ لأنه من أهل التحقيق والبحث، ومن أكثر الألمان تمحيصًا للحقائق، ولكننا نراه واهمًا في حكمه على هذه القائمة للأسباب الآتية:

**أولًا:** أن استقلال الأقاليم عن سلطة بغداد لم يكن يستلزم استقلالها عن الخلافة العباسية وقطع المال عنها، نعم، إن إفريقية استقل بها الأغالبة، وتوارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤–٢٩٦هـ، ولكن استقلالهم هذا لا يمنع تأديتهم مالًا معينًا كما كان يفعل معظم الأمراء المستقلين في مصر وخراسان وغيرهما، فإنهم كانوا يخطبون لخليفة بغداد ويعتبرون أنهم تابعون له دينيًّا فقط، كذلك كان شأن الدولة الطاهرية في خراسان، والطولونية في مصر،[٣٦] وكان بعضهم يقدم المال باسم الهدية، والبعض الآخر باسم الخراج أو الضمان أو غيرهما، وزد على ذلك أن إفريقية لم تكن تحمل مالًا إلى بيت المال إلا بعد سنة ١٨١هـ، أي بعد أن تولاها إبراهيم بن الأغلب، وهو الذي فرض على نفسه ٤٠٠٠٠ دينار، فلا يبعد أن يستمر الأغالبة على دفع مثل هذا المال إلى أيام المأمون؛ لأن الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون إفريقية من مملكتهم كل أيام الأغالبة، وكانوا يعينون الولاة عليها من بغداد باعتبار أن الأغالبة تحت هؤلاء الولاة،[٣٧] ويقال نحو ذلك في السند، بل نرى في هذا شاهدًا أقرب على صحة رواية ابن خلدون، فإن المأمون نفسه استعمل على السند سنة ٢١٦هـ عاملًا اسمه عمران بن موسى العتكي[٣٨] على أن يحمل إليه منها مليون درهم بعد كل نفقة[٣٩] ويدل ذلك على سيادته عليها، وإن كان المال المذكور أقل كثيرًا مما ذكره ابن خلدون، إذ يختلف المراد بحدود السند باختلاف الأزمنة، أما عدم ورود هذين البلدين في قائمتي قدامة وابن خرداذبة فقد يكون سببه عارضًا؛ إما لانقطاع الخراج منهما بعد قائمة ابن خلدون، أو لأسباب أخرى راجعة إلى دخول بعض الأقاليم في بعض أو غير ذلك كما سيتضح

من مقابلة القائمتين التاليتين، وعلى كل حال فإن افتراض هذه الأسباب أقرب إلى الصواب من اتهام ابن خلدون بالخطأ أو الوهم، وهو ثقة كثير التبصر والتمحيص، وقد قال صريحًا إن هذه الجباية وردت على بيت المال في أيام المأمون.

**ثانيًا:** أن ابن خلدون استحوذ على أوراق رسمية من أيام المأمون عن الدخل والخرج، كان يرجع إليها في تحقيق ما يكتبه في هذا الشأن ونحوه.[٤٠]

**ثالثًا:** أن الديوان احترق في أيام الأمين، وقد قدمنا أنه لم يدون فيه حساب إلا بعد سنة ٢٠٤هـ، وأما ما كان منها قبل ذلك فقد ضاع.

فبناء على ذلك يترجح عندنا أن يكون الحق في جانب ابن خلدون، وأن يكون البارون فون كريمر واهمًا في اعتراضه، وفوق كل ذي علم عليم.

(٢) **قائمة قدامة**: دونها قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في كتابه المسمى: «كتاب الخراج» ولم يصل إلينا منه إلا نتف طبعت في لايدن بعناية دي خويه المستشرق الهولندي الشهير، وقد توفي قدامة سنة ٣٣٧هـ، وكان أبوه نصرانيًّا وأسلم في أيام المكتفي (من ٢٨٩–٢٩٥هـ) وتولى منصبًا كبيرًا من مناصب الدولة العباسية، وألف كتبًا كثيرة من جملتها كتاب الخراج هذا، ويظهر أنه كتبه نحو سنة ٣١٦هـ نقلًا عن أوراق رسمية اتصلت به، ويستدل من مطالعة الكتاب أن ما ورد فيه من جباية البلاد يراد به جبايتها نحو سنة ٢٢٥هـ.

(٣) **قائمة ابن خرداذبة**: هو عبد الله بن خرداذبة، وذكر صاحب الفهرست أنه كان يتولى البريد في بلاد الجبال، ويظهر أنه كتب وهو في هذا المنصب كتابه «المسالك والممالك» وفيه هذه القائمة، ويظن دي خويه ناشر هذا الكتاب أن ابن خرداذبة كتبه سنة ٢٣٢هـ، ثم أضاف إليه بعض الزيادات فيما بعد بحيث لا يتجاوز حوالي سنة ٢٥٠هـ.

هذه القوائم الثلاث، وفيها جباية الدولة العباسية في إبان ثروتها، فلنوردها باعتبار قدمها، وأقدمها قائمة ابن خلدون، ثم قدامة، ثم خرداذبة:

## (٤-١) جباية الدولة العباسية (في أيام المأمون — نقلًا عن ابن خلدون)

| أسماء الأقاليم | من الدراهم | من الأموال والغلال |
|---|---|---|
| السواد | ٢٧٨٠٠٠٠٠ | ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ومن طين الختم ٢٤٠ رطلًا. |
| كسكر | ١١٦٠٠٠٠٠ | |
| كور دجلة | ٢٠٨٠٠٠٠٠ | |
| حلوان | ٤٨٠٠٠٠٠ | |
| الأهواز | ٢٥٠٠٠٠٠٠ | وسكر ٣٠٠٠٠ رطل. |
| فارس | ٢٧٠٠٠٠٠٠ | ومن ماء الورد ٣٠٠٠٠ قارورة ومن الزيت الأسود ٢٠٠٠٠ رطل. |
| كرمان | ٤٢٠٠٠٠٠ | ومتاع يماني ٥٠٠ ثوب و٢٠٠٠٠ رطل من التمر. |
| مكران | ٤٠٠٠٠٠ | |
| السند وما يليه | ١١٥٠٠٠٠٠ | و١٥٠ رطلًا من العود الهندي. |
| سجستان | ٤٠٠٠٠٠٠ | ومن الثياب المعينة ٣٠٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلًا. |
| خراسان | ٢٨٠٠٠٠٠٠ | ومن نقر الفضة ٢٠٠٠ نقرة و٤٠٠٠ برذون و١٠٠٠ رأس رقيق و٢٠٠٠٠ ثوب متاع و٣٠٠٠٠ رطل إهليلج. |
| جرجان | ١٢٠٠٠٠٠٠ | و١٠٠٠ شقة إبريسم. |
| قومس | ١٥٠٠٠٠٠ | ومن نقر الفضة ١٠٠٠ نقرة. |
| طبرستان والريان ودماوند | ٦٣٠٠٠٠٠ | و٦٠٠ قطعة من الفرش الطبري و٢٠٠ كساء و٥٠٠ ثوب و٣٠٠ منديل و٢٠٠ جامة. |
| الري | ١٢٠٠٠٠٠٠ | و٢٠٠٠٠ رطل عسل. |
| همدان | ١١٣٠٠٠٠٠ | و١٠٠٠ رطل من رب الرمانين و١٢٠٠٠ رطل عسل. |
| ماها البصرة والكوفة | ١٠٧٠٠٠٠٠ | |
| ماسبدان والريان | ٤٠٠٠٠٠٠ | |

| أسماء الأقاليم | من الدراهم | من الأموال والغلال |
|---|---|---|
| شهرزور | ٦٧٠٠٠٠٠ | |
| الموصل وما يليها | ٢٤٠٠٠٠٠٠ | و٢٠٠٠٠ رطل من العسل الأبيض. |
| أذربيجان | ٤٠٠٠٠٠٠ | |
| الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات | ٣٤٠٠٠٠٠٠ | و١٠٠٠ رأس من الرقيق و١٢٠٠٠ زق عسل وعشر بزات و٢٠ كساء. |
| أرمينية | ١٣٠٠٠٠٠٠ | و٢٠ من القسط المحقور و٥٣٠ رطلًا من الرقم «ضرب من الوشي» و١٠٠٠٠ رطل من المسايح السورماهي و١٠٠٠٠ من الصونج «نوع من الأسماك البحرية» و٢٠٠ بغل و٣٠ مهرًا. |
| برقة | ١٠٠٠٠٠٠ | |
| إفريقية | ١٣٠٠٠٠٠٠ | و١٢٠ بساطًا. |
| المجموع | ٣١٨٦٠٠٠٠٠ درهم | |

والجهات التالية وردت جبايتها بالدنانير:

| أسماء الأقاليم | من الدنانير | من الأموال والغلال |
|---|---|---|
| قنسرين | ٤٠٠٠٠٠ | و١٠٠٠ حمل زيت |
| دمشق | ٤٢٠٠٠٠ | |
| الأردن | ٩٧٠٠٠ | |
| فلسطين | ٣١٠٠٠٠ | |
| مصر | ٢٩٢٠٠٠٠ | و٣٠٠٠٠٠ رطل زيت |
| اليمن | ٣٧٠٠٠٠ | |
| الحجاز | ٣٠٠٠٠٠ | سوى المتاع «لم يذكر» |
| المجموع | ٤٨١٧٠٠٠ | دينار وتساوي ٧٣٢٥٥٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهمًا وهو تقديره في ذلك العصر. |

| أسماء الأقاليم | من الدنانير | من الأموال والغلال |
|---|---|---|
| فيكون المجموع بالدراهم | ٧٢٢٥٥٠٠٠ | |
| يضاف إليه جباية الأقاليم المذكورة قبله | ٣١٨٦٠٠٠٠٠ | |
| الجملة | ٣٩٠٨٥٥٠٠٠ درهم | |

وترى من النظر في هذه القائمة أن خراج أقاليم المشرق كانوا يقدرونه بالدراهم، وخراج أقاليم المغرب بالدنانير (إلا برقة وإفريقية) وسترى نحو ذلك أيضًا في القائمتين الأخريين، والسبب على ما يظهر أن مناجم الفضة كانت أكثر في أقاليم المشرق منها في المغرب، وبعكس ذلك مناجم الذهب.

فمجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وإفريقية) ٣١٨٦٠٠٠٠٠ درهم، ومجموع خراج سائر أقاليم المغرب ٤٨١٧٠٠٠ دينار، حولناها إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهمًا، وهو صرفه في ذلك العصر فبلغت ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم، وبإضافتها إلى جباية أقاليم المشرق بلغ المجموع كله ٣٩٠٨٥٥٠٠٠ درهم.

ورأينا في ما نقله فون كريمر من قائمة ابن خلدون بلدين هما الكرج والجيلان غير موجودين في ما لدينا من النسخ، نظنه وجدهما في نسخة فون همر برجشتال المستشرق النمسوي، خراج الأولى ٣٠٠٠٠٠ درهم، والثانية ٥٠٠٠٠٠٠ درهم، وليس هنا مكان التحقيق عن صحة هذه الرواية أو عدم صحتها.

فيكون مجموع جباية المملكة العباسية في أيام المأمون نحو ٤٠٠ مليون درهم، ما عدا الأموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته، وإذا أعدت النظر فيه رأيته شيئًا كثيرًا، والعادة في تقدير الجباية أن تقدر هذه الغلات بما تساويه من النقد، ويضاف مبلغها إلى مبالغ النقد، كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السواد ومعظمها في الأصل من الحنطة، وكما سترى في تفصيل طساسيج السواد بقائمتي قدامة وابن خرداذبة.

وقد تقدم أن الجباية التي كانت ترد إلى بيت المال في بغداد إنما هي صوافي ما تحصل منها في الأقاليم بعد دفع أموال الجند ونفقات الجباية وإصلاح الري ونحو ذلك من نفقات الأقاليم، ولم يبقَ على هذا المال إلا نفقات الدواوين في بغداد للخليفة ووزرائه

وكتابه ورجال بطانته، وقد يرتاب القارئ في رواية ابن خلدون؛ لبعدها عما هو مألوف عندنا من ميزانيات دول هذه الأيام، وما فيهن من يبقى في صندوقها معشار هذا المال؛ ولذلك فنأتي بالروايتين الأخريين للمقابلة بينهما وبين رواية ابن خلدون.

## (٤-٢) جباية الدولة العباسية (في أيام المعتصم — نقلًا عن قدامة بن جعفر)

كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشعير، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلًا باعتبار طساسيج السواد، أي نواحيه في الشرق والغرب.

| اسم الناحية | مقدار الحنطة بالكر | مقدار الشعير بالكر | الدراهم |
|---|---|---|---|
| **طساسيج السواد في الجانب الغربي:** | | | |
| الأنبار ونهر عيسى | ١١٨٠٠ | ٦٤٠٠ | ٤٠٠٠٠ |
| طسوج مسكن | ٣٠٠٠ | ١٠٠٠ | ١٥٠٠٠٠ |
| طسوج قطربل | ٢٠٠٠ | ١٠٠٠ | ٣٠٠٠٠٠ |
| طسوج بادوريا | ٣٥٠٠ | ١٠٠٠ | ١٠٠٠٠٠٠ |
| بهر سير | ١٧٠٠ | ١٧٠٠ | ١٥٠٠٠٠ |
| الرومقان | ٣٣٠٠ | ٣٣٠٠ | ٢٥٠٠٠٠ |
| كوثي | ٣٠٠٠ | ٢٠٠٠ | ٣٥٠٠٠٠ |
| نهر درقيط | ٢٠٠٠ | ٢٠٠٠ | ٢٠٠٠٠٠ |
| نهر جوبر | ١٥٠٠ | ٦٠٠٠ | ١٥٠٠٠٠ |
| باروسما ونهر الملك | ٣٥٠٠ | ٤٠٠٠ | ١٢٢٠٠٠ |
| الزوابي الثلاثة | ١٤٠٠ | ٧٢٠٠ | ٢٥٠٠٠٠ |
| بابل وخطرانية | ٣٠٠٠ | ٥٠٠٠ | ٢٥٠٠٠٠ |
| الفلوجة العليا | ٥٠٠ | ٥٠٠ | ٧٠٠٠٠ |
| الفلوجة السفلى | ٢٠٠٠ | ٣٠٠٠ | ٢٨٠٠٠٠ |
| طسوج النهرين | ٣٠٠ | ٤٠٠ | ٤٥٠٠٠ |
| طسوج عين التمر | ٣٠٠ | ٤٠٠ | ٤٥٠٠٠ |
| طسوج الجبة والبداة | ١٥٠٠ | ١٦٠٠ | ١٥٠٠٠٠ |

| اسم الناحية | مقدار الحنطة بالكر | مقدار الشعير بالكر | الدراهم |
|---|---|---|---|
| سوراو وبرنسيما | ١٥٠٠ | ٤٥٠٠ | ٢٥٠٠٠٠ |
| البرس الأعلى والأسفل | ٥٠٠ | ٥٥٠٠ | ١٥٠٠٠٠ |
| فرات بادقلي | ٢٠٠٠ | ٢٥٠٠ | ٦٢٠٠٠ |
| طسوج السيليحين | ١٠٠٠ | ١٥٠٠ | ١٤٠٠٠٠ |
| روذستان وهرمزجرد | ٥٠٠ | ٥٠٠ | ٢٠٠٠٠ |
| تستر | ٢٢٠٠ | ٢٠٠٠ | ٣٠٠٠٠٠ |
| إيغار يقطين | ١٢٠٠ | ٢٠٠٠ | ٢٠٤٨٠٠ |
| كسكر | ٣٠٠٠٠ | ٢٠٠٠٠ | ٢٧٠٠٠٠ |
| **طساسيج السواد في الجانب الشرقي:** | | | |
| طسوج بزرجسابور | ٢٥٠٠ | ٢٢٠٠ | ٣٠٠٠٠٠ |
| طسوج الرذانين | ٤٨٠٠ | ٤٨٠٠ | ١٢٠٠٠٠ |
| طسوج نهر بوق | ٢٠٠ | ١٠٠٠ | ١٠٠٠٠٠ |
| كلواذي ونهر بين | ١٦٠٠ | ١٥٠٠ | ٣٣٠٠٠٠ |
| جازر والمدينة العتيقة | ١٠٠٠ | ١٥٠٠ | ٢٤٠٠٠٠ |
| روستقباد | ١٠٠٠ | ١٤٠٠ | ٢٤٦٠٠٠ |
| سلسل ومهروذ | ٢٠٠٠ | ١٥٠٠ | ١٥٠٠٠ |
| جلولا وجللتا | ١٠٠٠ | ١٠٠٠ | ١٠٠٠٠٠ |
| الذيبين | ١٩٠٠ | ١٣٠٠ | ٤٠٠٠٠ |
| الدسكرة | ١٨٠٠ | ١٤٠٠ | ٦٠٠٠٠ |
| البذنيجين | ٦٠٠ | ٥٠٠ | ٣٥٠٠٠ |
| طسوج برز الروذ | ٣٠٠٠ | ٥١٠٠ | ١٢٠٠٠٠ |
| النهروان الأعلى | ١٧٠٠ | ١٨٠٠ | ٣٥٠٠٠٠ |
| النهروان الأوسط | ١٠٠٠ | ٥٠٠ | ١٠٠٠٠٠ |
| بادرايا وباكسايا | ٤٧٠٠ | ٥٠٠٠ | ٣٣٠٠٠٠ |
| كور دجلة | ٩٠٠ | ٤٠٠٠ | ٤٣٠٠٠٠ |
| نهر الصلة | ١٠٠٠ | ٣١٢١ | ٥٩٠٠٠ |

| اسم الناحية | مقدار الحنطة بالكر | مقدار الشعير بالكر | الدراهم |
|---|---|---|---|
| النهروان الأسفل | ١٧٠٠ | ١٣٠٠٠ | ٥٣٠٠٠ |
| مجموع خراج السواد | ١١٥٦٠٠ | ١٣٥٦٢١ | ٨٨٢١٨٠٠ |

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥٦٠٠ كر حنطة، و١٣٥٦٢١ كر شعير، و٨٨٢١٨٠٠ درهم، على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل — كما تقدم — فقد قال في إيراد المجموع: «ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧٢٠٠ كر، ومن الشعير ٩٩٧٢١ كرًّا، ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم[٤١] ولعل السبب في هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الأعداد، على أن الفرق على كثرته لا يعتد به فيما نحن فيه، بقي علينا أن نحول الحنطة والشعير إلى دراهمَ، وقد فعل جعفر ذلك فحولهما باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين دينارًا، والدينار على صرف خمسة عشر درهمًا بدينار، فبلغ ذلك ١٠٠٣٦١٨٥٠ درهمًا وقال إن صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم، فإذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهمًا على هذه الصورة:

| | |
|---|---|
| ٨٠٩٥٨٠٠ | الدراهم المجموعة ورقًا |
| ١٠٠٣٦١٨٥٠ | قيمة الحنطة والشعير بالدرهم |
| ٦٠٠٠٠٠٠ | صدقات البصرة |
| ١١٤٤٥٧٦٥٠ | درهمًا |

هذا هو ارتفاع السواد، فلنتقدم إلى إيراد جبايات سائر الأقاليم في المشرق والمغرب، وهي مع السواد:

| أقاليم المشرق | درهم |
|---|---|
| السواد | ١١٤٤٥٧٦٥٠ |
| الأهواز | ٢٣٠٠٠٠٠٠ |
| فارس | ٢٤٠٠٠٠٠٠ |
| كرمان | ٦٠٠٠٠٠٠ |
| مكران | ١٠٠٠٠٠٠ |
| أصبهان | ١٠٥٠٠٠٠٠ |
| سجستان | ١٠٠٠٠٠٠ |
| خراسان | ٣٧٠٠٠٠٠٠ |
| حلوان | ٩٠٠٠٠٠ |
| ماه الكوفة | ٥٠٠٠٠٠٠ |
| ماه البصرة | ٤٨٠٠٠٠٠ |
| همدان | ١٧٠٠٠٠٠ |
| ماسبذان | ١٢٠٠٠٠٠ |
| مهرجان قذق | ١١٠٠٠٠٠ |
| الإيغارين | ٣١٠٠٠٠٠ |
| قم وقاشان | ٣٠٠٠٠٠٠ |
| أذربيجان | ٤٥٠٠٠٠٠ |
| الري ودماوند | ٢٠٠٨٠٠٠٠ |
| قزوين وزنجان وأبهر | ١٨٢٨٠٠٠ |
| قومس | ١١٥٠٠٠٠ |
| جرجان | ٤٠٠٠٠٠٠ |
| طبرستان | ٤٢٨٠٧٠٠ |
| تكريت والطيرهان | ٩٠٠٠٠٠ |
| شهرزور والصامغان | ٢٧٥٠٠٠٠ |
| الموصل وما يليها | ٦٣٠٠٠٠٠ |
| قردي وبذيدي | ٣٢٠٠٠٠٠ |

| أقاليم المشرق | درهم |
|---|---|
| ديار ربيعة | ٩٦٣٥٠٠٠ |
| أرزن وميافاراقين | ٤٢٠٠٠٠٠ |
| طرون | ١٠٠٠٠٠ |
| آمد | ٢٠٠٠٠٠٠ |
| ديار مضر | ٦٠٠٠٠٠٠ |
| أعمال طريق الفرات | ٢٩٠٠٠٠٠ |
| (المجموع) | ٣١١٥٨١٣٥٠ |

| أقاليم المغرب | دينار |
|---|---|
| قنسرين والعواصم | ٣٦٠٠٠٠ |
| جند حمص | ٢١٨٠٠٠ |
| جند دمشق | ١١٠٠٠٠ |
| جند الأردن | ١٠٩٠٠٠ |
| جند فلسطين | ٢٩٥٠٠٠ |
| مصر والإسكندرية | ٢٥٠٠٠٠٠ |
| الحرمين | ١٠٠٠٠٠ |
| اليمن | ٦٠٠٠٠٠ |
| اليمامة والبحرين | ٥١٠٠٠٠ |
| عمان | ٣٠٠٠٠٠ |
| (المجموع) | ٥١٠٢٠٠٠ |

وبتحويلها إلى دراهمَ باعتبار الدينار ١٥ درهمًا تساوي ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم وبإضافتها إلى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة أعلاه يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهمًا، وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة.[٤٢]

## (٤-٣) جباية الدولة العباسية (في أواسط القرن الثالث للهجرة – على رواية ابن خرداذبة)

فصل ابن خرداذبة جباية أعمال السواد كما فصلها قدامة، وزاد على ذلك عدد الشون والبيادر مما يطول بنا إيراده، فنكتفي بذكر جملته من الحنطة والشعير والفضة، وذلك عبارة عن ٦٣٤٠٠ كر حنطة، و٩١٨٥٠ كر شعير، و٨٤٥٦٨٤٠ درهمًا نقدًا، وبتحويل الحنطة والشعير إلى دراهمَ باعتبار الكرين المقرونين ستين دينارًا، والدينار ١٥ درهمًا كما تقدم، بلغت قيمتهما ٦٩٨٦٢٥٠٠ درهم، وبإضافة ذلك إلى الدراهم المجموعة نقدًا تصير الجملة ٧٨٣١٩٣٤٠ درهمًا.

ثم فصل جباية خراسان وما يلحق بها من الأقاليم في الدولة الطاهرية، باعتبار ما وظف عليها سنة ٢١٢هـ، ومقدار ذلك جملة ٤٤٨٤٦٠٠٠ درهم، و١٣ دابة للركوب، و٢٠٠٠ شاة من الغنم، و٢٠٠٠ رأس من السبي الغزية ما قيمته ٦٠٠٠٠٠ درهم، ومن الكرابيس الكندجية ١١٨٧ ثوبًا، ومن المرور وصفائح الحديد ١٣٠٠ قطعة نصفين، وكانت خراسان يومئذ تشمل نحوًا من خمسين عملًا في جملتها الري، وقومس، وجرجان، وكرمان، وسجستان، ونيسابور، وطخارستان، والطالقان، وأعمال ما وراء النهر، وفيها بخارى، والصفد، وغيرهما، وكان الطاهريون مستقلين بها ويدفعون عنها هذه الوظيفة (أي هذا القدر من المال)، وقد اقتصرنا على إجمال ذلك خوفَ التطويلِ، ومن أراد تفصيل جباية أعمال السواد وأعمال خراسان فليراجعها في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، ولنتقدم إلى إتمام قائمته عن الأعمال الأخرى من الإجمال الذي ذكرناه:

| أقاليم المشرق | دراهم |
|---|---|
| السواد | ٧٨٣١٩٣٤٠ |
| خراسان وتوابعها | ٤٤٨٤٦٠٠٠ |
| شهرزور والصامغان | ٢٧٥٠٠٠٠ |
| ماسبذان ومهرجان قذق | ٣٥٠٠٠٠٠ |
| قم | ٢٠٠٠٠٠٠ |
| الأهواز | ٣٠٠٠٠٠٠٠ |

| أقاليم المشرق | دراهم |
|---|---|
| فارس | ٣٣٠٠٠٠٠٠ |
| قزوين | ١٢٠٠٠٠٠ |
| ماه الكوفة | ٣٨٠٠٠٠٠ |
| أصبهان | ٧٠٠٠٠٠٠ |
| ديار مضر | ٥٦٠٠٠٠٠ |
| الموصل | ٤٠٠٠٠٠٠ |
| ديار ربيعة | ٧٧٠٠٠٠٠ |
| أرمينية | ٤٠٠٠٠٠٠ |
| (المجموع) | ٢٢٧٧١٥٣٤٠ |

| أقاليم المغرب | دنانير |
|---|---|
| قنسرين والعواصم | ٤٠٠٠٠٠ |
| جند حمص | ٣٤٠٠٠٠ |
| جند دمشق | ٤٠٠٠٠٠ |
| جند الأردن | ٣٥٠٠٠٠ |
| جند فلسطين | ٥٠٠٠٠٠ |
| مصر | ٢١٨٠٠٠٠ |
| اليمن | ٦٠٠٠٠٠ |
| (المجموع) | ٤٧٧٠٠٠٠ |

وبتحويل هذه الدنانير إلى دراهمَ تبلغ ٧١٥٥٠٠٠٠ درهم، تضاف إلى مجموع جباية أقاليم المغرب أعلاه على هذه الصورة:

| درهم | |
|---|---|
| ٢٢٧٧١٥٣٤٠ | جباية أقاليم المشرق |
| ٧١٥٥٠٠٠٠ | جباية أقاليم المغرب |
| ٢٩٩٢٦٥٣٤٠ | الجملة |

## (٤-٤) مجمل جباية الدولة العباسية

وخلاصة ما تقدم أن ارتفاع الدولة العباسية كان على معظمه في أيام المأمون، ثم أخذ في التناقص بعده، ولم يظهر ذلك النقص إلا بعد أواسط القرن الثالث للهجرة، لأسباب سيأتي بيانها، وأما قبل ذلك فإن ارتفاع هذه الدولة كان عظيمًا جدًّا، كما تبين من القوائم الثلاث التي ذكرناها، وهاكَ ملخصًا لها:

| درهم | |
|---|---|
| ٣٩٦١٥٥٠٠٠ | جباية الدولة العباسية في أيام المأمون بين سنة ٢٠٤ و٢١٠هـ. |
| ٣٨٨٢٩١٣٥٠ | جباية الدولة العباسية في أيام المعتصم أو بُعَيْدَهُ إلى سنة ٢٢٥. |
| ٢٩٩٢٦٥٣٤٠ | جباية الدولة العباسية في أواسط القرن الثالث.* |
| ١٠٨٣٧١١٦٩٠ | الجملة |

*لا يخفى على المتأمل أننا عيَّنَّا هذه الأزمنة بالتقريب؛ إذ قد يرد في قائمة ابن خرداذبة مثلًا خراج إقليم كما وظف عليه في عهد قائمة ابن خلدون أو قدامة وبالعكس، وإنما اعتبرنا في تعيينها الأغلبية.

فترى من مقابلة هذه الأرقام أن الفرق في الجباية ظهر حتى في النصف الأول من القرن الثالث، وخصوصًا إذا اعتبرت ما أغفلناه من قائمة ابن خلدون من الأموال والأمتعة والمحصولات وهي من جملة الخراج، فمعدل الوارد إلى بيت المال في العام

نحو ٣٦٠ مليون درهم، وهي صوافي جباية الأعمال كما قدمنا، مما لم نسمع بمثله في الدول قديمًا ولا حديثًا، إلا إذا اعتبرنا ما أورده بعضهم إجمالا بطريق العرض عن دولتي الروم والفرس، فقد قال جِبن مؤرخ الدولة الرومانية إن جباية هذه الدولة إبان سطوتها ومعظم سعتها تساوي نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ درهم، منها ١٣٥٠٠٠٠٠٠ درهم من آسيا (الصغرى)،[٤٣] وذكر ابن خرداذبة أن جباية مملكة الفرس في أيام كسرى برويز بلغت ٤٢٠٠٠٠٠٠٠ مثقال، أو نحو ٧٢٠ مليون درهم، فإذا سلمنا بصحة هذه الأرقام أعوزنا الاطلاع على طريقة الإنفاق عندهم؛ إذ ربما كانت تستغرق معظم هذه الجباية بخلاف الدولة العباسية كما سترى، أما ما خلا هاتين الدولتين فالفرق بين جبايتها وجباية هذه الدولة عظيم جدًّا، فالدولة العثمانية بلغت معظم سعتها في أيام السلطان سليمان القانوني في أواسط القرن العاشر للهجرة، ولم يزد ارتفاع جبايتها في أيامه على ٨٠٠٠٠٠٠ دوكات[٤٤] أو نحو ٢٨٤٣٧٥٠ جنيهًا مصريًّا، فأين ذلك من جباية الدولة العباسية؛ فإنها تزيد على أضعافه؟! وقِسْ على ذلك دول هذه الأيام باعتبار ما يبقى في صندوقها كما سيأتي.

ولنتقدم إلى الكلام في الجهات التي كانت تنفق فيها الأموال:

## (٥) نفقات الدولة العباسية

لم نرَ فيما كتبه المؤرخون القدماء في العربية نصًّا يتعلق بهذا الشأن، ولا ندري إذا كانوا فعلوا ذلك عمدًا أو ضاع ما كتبوه في ثنيات الزمان، على أن مؤرخي المسلمين قلما دونوا حوادث التمدن الإسلامي أو ما هو في معناه، كمقدار الدخل أو الخرج وثروة المملكة وحال العلم، أو نظام الهيئة الاجتماعية غير ما جاء عرضًا في أثناء ذكر الوقائع الحربية، أو وصف مجالس الطرب — إلا ابن خلدون، فقد أورد جباية الدولة في عرض الكلام عن بذخها في إبانها، وأما قدامة وابن خرداذبة فقد ذكرا مقدار الخراج في عرض الكلام عن طرق البريد، وقد ذكر الخراج أيضًا بعض أصحاب التقاويم (الجغرافية) ولكن أحدًا منهم لم يذكر شيئًا عن الشؤون التي تنفق فيها الأموال المجموعة من الخراج في العصر الذي نحن في صدده.

على أننا بالقياس على ما عرفناه من أحوال ذلك التمدن، نرجح أن المال المشار إليه كان يوضع في بيت المال، بعد دفع رواتب الجند والكتاب والقضاة وسائر أرباب المناصب في دواوين الحكومة في بغداد، والموظفين الذين قد تعينهم الحكومة من بغداد وتدفع

رواتبهم من بيت مالها ولو كانت أعمالهم في الخارج مثل عمال البريد[٤٥] وغيرهم، وما بقي من أموال الجباية بعد هذه النفقات يوضع في بيت المال تحت اجتهاد الخليفة.[٤٦]

أما مقدار ما كان ينفق على الجند المقيدين في الدواوين وغيرهم فمما لا يمكن القطع فيه؛ لأنه يختلف باختلاف العصور وأحوال الخلفاء، ولم نقف على شيء صريح في هذا الشأن في العصر العباسي الأول ولا في غيره.

على أننا توفقنا بهمة البارون فون كريمر إلى قائمة تشمل ما اشترطه أحمد بن محمد الطائي على نفسه أن يقدمه من ضمانه إلى بيت المال، وفيه ما كان ينفقه بيت المال في بغداد في السنين الأولى من خلافة المعتضد العباسي (سنة ٢٧٩هـ)[٤٧] وقد عين فيه مقدار المال اللازم لكل فئة من فئات الموظفين الذين تدفع رواتبهم من بيت المال، وجملة ذلك ٢٥٠٠٠٠٠ دينار في السنة، تدفع مياومة باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار، تفرق في الجند وموظفي الدواوين والخدم وغيرهم على هذه الصورة:

نفقات الدولة العباسية (في أيام المعتضد بالله سنة ٢٧٩هـ بالمياومة)

| دينار في اليوم | |
|---|---|
| ١٠٠٠ | أرزاق أصحاب النوبة ومن برسمهم من البوابين وفيهم البيضان من الجنابيين والبصريين وأصحاب المصاف بباب العامة وغيرهم والسودان وأكثر مماليك الناصر. |
| ١٠٠٠ | أرزاق الغلمان الذين أعتقهم الناصر (هو الموفق بن المتوكل) ويعرفون بالغلمان الخاصة. |
| ١٥٠٠ | أرزاق الفرسان من الأحرار المميزين. |
| ٦٠٠ | أرزاق المختارين، وهم جنود منتخبون من كل قيادة، وقد عرفوا بالشهامة والشجاعة. |
| ٥٠٠ | أرزاق المثبتين في أيام الناصر. |
| ١١٠ | أرزاق سبعة عشر صنفًا من المرسومين بخدمة الدار، والرسائل الخاصة، والقراء، وأصحاب الأخبار، والمؤذنين، والمنجمين، والفنجاميين، وأصحاب الأعلام، والبوقيين، والمضحكين، والطالبين، وغيرهم. |
| ٥٠ | المرتزقة برسم الشرطة في مدينة السلام، وغيرها. |
| ٣٠٠ | أثمان أنزال المماليك، وغيرهم. |

| دينار في اليوم | |
|---|---|
| ٣٣٣٠ ١/٣ | نفقات المطابخ الخاصة والعامة، والمخابز، وإنزال الحرم، والحشم، ومخابز السودان. |
| ١٠٠ | ثمن وظائف الشراب للخاصة والعامة، وآلاته، ونفقات خزائن الكسوة، والخلع، والطيب، وحوائج الوضوء، وخزائن السلاح، والفرش ... إلخ. |
| ٤ | أرزاق السقائين بالقرب في القصر، والخزائن، والمخابز، والدور، والحجر، والخدم ... إلخ. |
| ١٦٧ | أرزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك، دون الأكابر الأحرار، ومن أضيف إليهم من الحشم القدماء. |
| ١٠٠ | أرزاق الحشم من المستخدمين في شراب العامة، وخزائن الكسوة، والصناع من الصاغة، والخياطين، والعقادين، والأساكفة، والحدادين، والرفائين، والمطرزين، والنجادين، والوراقين، والعطارين، والمشهرين، والنجارين، والخراطين، والإسفاطيين، وغيرهم ... إلخ. |
| ١٠٠ | أرزاق الحرم. |
| ٤٠٠ | ثمن علوفة الكراع في الإصطبلات الخمسة. |
| ٦٦٠ ٢/٣ | ما يصرف من ثمن الكراع، والإبل، والخيل ... إلخ. |
| ٣٠ | أرزاق المطبخيين. |
| ٣٠ | أرزاق الفراشين، والمحلبيين، وخزان الفرش، والحمالين. |
| | أرزاق أصحاب الركاب، والجنائب، والسروج، ومن يخدم في دواب البريد. |
| ٤٤ | أرزاق الجلساء، وأكابر الملهين، ومن يجري مجراهم. |
| ٢٣ ١/٣ | أرزاق جماعة من المتطببين، وتلامذتهم ... إلخ. |
| ٧٠ | أرزاق أصحاب الصيد من البازياريين، والفهادين، والكلابزريين وغيرهم. |
| ١٦ ٢/٣ | أرزاق الملاحين في الطيارات، والشذات، والحراقات، وغيرها من السفن. |

| دينار في اليوم | |
|---|---|
| ٤ | ثمن النفط والمشاقة للنفاطات، والمشاعل وأجرة الرجال لخدمتها. |
| ١٥ | الصدقة التي تحضر كل يوم عند صلاة الصبح في خرقة سوداء. |
| ٣٣ ١/٣ | جاري أولاد المتوكل. |
| ١٦ ٢/٣ | جاري أولاد الواثق. |
| ١٦ ٢/٣ | جاري أولاد الناصر. |
| ٢٠ | أرزاق مشائخ بني هاشم، وأصحاب المراتب، والخطباء في المساجد. |
| ٣٣ ١/٣ | أرزاق جمهور بني هاشم من العباسيين، والطالبيين. |
| ٣٣ ١/٣ | جاري عبيد الله بن سليمان (الوزير) مع خمس مئة دينار للقاسم ابنه (في الشهر) برسم العرض. |
| ١٥٦ ٢/٣ | أرزاق أكابر الكتاب، وأصحاب الدواوين، والخزان، والبوابين، والمديرين، والأعوان، وسائر من في الدواوين، وثمن الصحف، والقراطيس والكاغد — سوى كُتَّاب دواوين الإعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة وأصحابهم، وأعوانهم، وخزان بيت المال، فإنهم يأخذون أرزاقهم بما يوفرونه من أموال الساقطين، وغرم المخلين بدوابهم. |
| ١٦ ٢/٣ | جاري إسحق بن إبراهيم القاضي، وخليفته يوسف بن يعقوب والد أبي عمر، وأولادهما، وعشرة نفر من الفقهاء. |
| ٥٠ | نفقات السجون، وثمن أقوات المحبسين. |
| ٣ ١/٣ | جاري المؤذنين في المسجدين، والمكبرين، والقوام، والأئمة، وثمن الزيت للمصابيح، والحصر، والبواري، والماء، وثمن الستار للصيف، والجلباب والخزف، والعمارة في شهر رمضان. |
| ١٩ | نفقات الجسرين، وثمن ما يبدل من سفنهما، وأرزاق الجسارين. |

| | دينار في اليوم |
|---|---|
| نفقات البيمارستان الصاعدي، ولم يكن يومئذ غيره، وأرزاق المتطببين والمآنين والكحالين، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم، والبوابين، والجنازين، وغيرهم، وأثمان الطعام والأدوية والأشربة. | ١٥ |
| (الجملة) | ٦٩٧٤ |

فالمجموع نحو سبعة آلاف دينار، وذلك نفقات الدولة العباسية في اليوم الواحد من أيام المعتضد (سنة ٢٧٩هـ)، ومجموع ذلك في السنة نحو مليونين ونصف (٢٥٠٠٠٠٠ دينار)، فإذا فرضنا نفقاتها في أيام المأمون والمعتصم نحو ذلك — وهي في اعتقادنا يجب أن تكون أقل من ذلك بالنظر إلى تكاثر الغلمان والمماليك في أواخر القرن الثالث عما كان في أوائله — فإذا فرضنا النفقات واحدة في أيام المأمون والمعتضد، وحولناها إلى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهمًا على الأكثر، بلغ ذلك ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم، فإذا أسقطناها من معدل الجباية الذي ذكرناه وهو ٣٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم، كان الباقي ٣١٠٠٠٠٠٠٠ درهم، أو قل ٣٠٠ مليون فقط، فالدولة التي يبقى في بيت مالها هذا المبلغ العظيم كل سنة تعد في معظم الثروة؛ لأننا لم نسمع بدولة من الدول يبقى في صندوقها نصف هذا المال، أو ربعه، أو عشره، إلا ما قدمناه عن دولتي الروم والفرس.

وزد على ذلك أن هذه النفقات جزء صغير من مال الجباية؛ لأنها عبارة عن خراج ما ضمنه الطائي من البلاد، وهي سقي الفرات، ودجلة، وجوخي، وواسط، وكسكر، وطساسيج نهر بوق، والذيبين، وكلواذي، ونهربين، والرذانين وطريق خراسان، وكلها من العراق، وهي بعضه كما يتضح ذلك من مراجعة قائمة قدمة، فلا مشاحة في أن نفقات الدولة العباسية كانت تستخرج من خراج بعض أعمالها.

## (٦) تقدير هذه الثروة بنقود هذه الأيام (سنة ١٩٠٣)

ولكي ينجلي لنا مقدار هذه الثروة بالنظر إلى التمدن الحديث، يجب أن نحولها إلى نقود هذه الأيام، وقد تقدم أن الدينار كان صرفه في النصف الأول من القرن الثالث ١٥ درهمًا، فمقدار هذه الثروة بالدنانير ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار، ويقدرون الدينار بنقود هذه

الأيام بنصف جنيه، فيكون مجموع الباقي في بيت المال في السنة يساوي عشرة ملايين من الجنيهات.

ثم إن قيمة النقود تختلف باختلاف ما تستبدل به من المحصولات، أو ما يستخدم به من الرجال، فصاحب ألف جنيه في بلاد يباع فيها إردب الحنطة بخمسين قرشًا يعد بمنزلة صاحب ألفين في بلاد يباع فيها الإردب بمائة قرش.

ويختلف ذلك في البلد الواحد باختلاف العصور، فصاحب بضعة آلاف قرش كان يعد عندنا في أوائل القرن الماضي من الأغنياء؛ لأن حاجيات الحياة كانت رخيصة جدًّا، ثم أخذت أثمانها تتصاعد بتكاثر الناس، وتفننهم في طرق المعائش، ولأسباب أخرى، حتى أصبح هذا المبلغ مما ينفقه أوساط الناس في شهر واحد، وقد لاحظنا فرقًا واضحًا في سعر الذهب في الأعوام الأخيرة بمصر، يجدر بالحكومة أن تتنبه له وتراعيه لعلاقته برواتب مستخدميها، وذلك أنه بالنظر إلى تصاعد أثمان المآكل وأجور المساكن، زادت نفقات البيوت نحو الربع عما كانت عليه منذ خمسة أعوام أو ستة، فالموظف الذي كان ينفق على عائلته ألف قرش في الشهر مثلًا أصبح لا يكفيه أقل من ١٢٥٠ أو ١٣٠٠ قرش، والراتب الذي كان يتقاضاه لا يزال واحدًا، ويعبر عن ذلك بنزول قيمة الذهب، فأصحاب الرواتب المعينة ينبغي أن تزداد رواتبهم كلما غلا السعر.

فللوقوف على حقيقة ثروة المملكة العباسية بالنظر إلى قيمة نقود هذه الأيام، يجب أن نقابل بين أثمان المحصولات يومئذ وأثمانها اليوم وأجور العمال في العصرين، وقد رأيت فيما تقدم أن ثمن الكر من الحنطة والشعير في أيام قدامة[٤٨] ثلاثون دينارًا، والكر العراقي أربعون إردبًّا[٤٩] والإردب من الحنطة والشعير اليوم يقدر بنحو جنيه، فالأربعون إردبًّا بأربعين جنيهًا أو ثمانين دينارًا أي نحو ثلاثة أمثاله في تلك الأيام.

وكانت أجرة الأستاذ البناء في أيام المنصور قيراط فضة، والروزكاري (الفاعل) حبتين،[٥٠] والقيراط في العراق جزء من عشرين من الدينار[٥١] والحبة جزء من ستين منه فكأن أجرة الأستاذ بنقود هذه الأيام ثلاثة أرباع الدرهم أي نحو ثلاثة قروش، وأجرة الفاعل قرش، وذلك نحو ثلث أجرته اليوم (سنة ١٩٠٣) أو ربعها، فالنقود في أيام العباسيين كانت تساوي ثلاثة أضعاف ما تساويه اليوم على الأقل، فالباقي في بيت مال العباسيين في السنة يساوي ثلاثين مليون دينار بنقود هذه الأيام، وكانت توضع في بيت المال تحت تصرف الخليفة واجتهاده، يستخدمها في الجهات التي يريدها أو تتراءى له فيها مصلحة للدولة، فهل نستغرب بعد ذلك إذا قيل لنا إن الخليفة الفلاني أعطى

شاعرًا مائة ألف درهم أو عشرة آلاف دينار، ونحن نرى أغنياءنا اليوم يبتاعون الصورة القديمة بمائة ألف جنيه، والقطعة من الآثار القديمة (الأنتيكة) بنصف مليون جنيه أو مليون؟! وإنما ذلك من نتائج الغنى الفاحش.

وليس في دول هذه الأيام (سنة ١٩٠٣) ما يزيد الباقي في صندوقها على مليون واحد إلا نادرًا، مع أن مصادر الدخل عندها زادت عما كانت عليه في أيام العباسيين، خذ إنجلترا مثلًا، وهي من أعظم الدول الآن، فإن دخلها لعام ١٩٠٠ بلغ نحو ١٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيه منها:

| جنيه | |
|---|---|
| ٢٢٠٠٠٠٠٠ | ضرائب المشروبات الروحية والتبغ والشاي. |
| ٣٢٠٠٠٠٠٠ | قيمة الرخص على بيع هذه المشروبات ونحوها. |
| ١٨٥٠٠٠٠٠ | ضريبة الإيراد. |
| ١٣٠٠٠٠٠٠ | طوابع البريد. |
| ٣٠٠٠٠٠٠ | من التلغراف. |
| ٨٥٠٠٠٠٠ | طوابع للعقود ونحوها. |
| ٩٧٠٠٠٠٠٠ | (المجموع) |

فترى من هذا المجموع أن نحو أربعة أخماس دخل هذه الدولة من مصادر لا يكاد يكون لها أثر في صدر الدولة العباسية.

ويغلب في نفقات الدول الحديثة أن تساوي دخلها أو يبقى لها باق قليل جدًّا يندر أن يزيد على مليون جنيه، وكثيرًا ما يعجز صندوقها عن القيام بالنفقات كلها لحدوث ما يدعو إلى زيادة النفقة كالحروب ونحوها، كما حدث لإنجلترا في الأعوام الأخيرة أثناء حربها في جنوبي إفريقيا حتى اضطرت إلى الاستقراض كما هو مشهور، فما هو السبب في الفرق بين ميزانية دول هذه الأيام وميزانية الدولة العباسية؟ لا يتضح لنا ذلك إلا إذا ذكرنا أسباب الثروة العباسية.

**هوامش**

(١) قدامة ٢٣٦.
(٢) الماوردي ١٨٣.
(٣) الطبري ٨٨ ج٣.
(٤) المسعودي ١٧٧ ج٢.
(٥) الطبري ٤٤٤ ج٣.
(٦) ابن الأثير ١٣ ج٦.
(٧) المقدسي ١٢١، وسير الملوك ٥٤.
(٨) الطبري ٦/١٥٨.
(٩) ابن الأثير ٦/٤٠.
(١٠) الطبري ٧٦٤ ج٣ وابن الأثير ٨٥ ج٦.
(١١) المسعودي ١٧٧ ج٢.
(١٢) الطبري ١٣٣ ج٢.
(١٣) اقرأ أخبار بخله وتقتيره عند الطبري، تاريخ ٦/٣٠٩ وما بعدها وابن الأثير ١٢ ج٦.
(١٤) أبو الفداء ٢٠ ج٢.
(١٥) أبو الفداء ٢٢ ج٢.
(١٦) ابن حوقل ٧٧.
(١٧) نفح الطيب ١٧٩ ج١.
(١٨) ابن خلكان ٣٠ ج٢.
(١٩) ابن خلدون ١١٥ ج١.
(٢٠) ابن حوقل ٧٧.
(٢١) ابن خلدون ١٥٠ ج١.
(٢٢) الإصطخري ٢٨.
(٢٣) المقريزي ٧٧ ج١.
(٢٤) ابن الأثير ٦٣ ج٦.
(٢٥) اليعقوبي (كتاب البلدان) ١٣٣.
(٢٦) ابن خرداذبة ٣٤ و٤٣ و٤٨ و٥٧.

(٢٧) المقريزي ٩٧ ج١.
(٢٨) ابن خلدون ١٥٠ ج١.
(٢٩) في السطر الثامن من طبعة بولاق صفحة ١٥٠.
(٣٠) في السطر ٢١ من الصفحة المذكورة.
(٣١) في السطر ٢٦ من تلك الصفحة.
(٣٢) Cult. gesch. des Orients 1.356.
(٣٣) في السطر ٢٧ من تلك الصفحة.
(٣٤) الطبري ١٤٦٨ ج٣.
(٣٥) قدامة ٢٣٦.
(٣٦) المقريزي ٣٢١ ج١.
(٣٧) ابن الأثير ٤٥ ج٧.
(٣٨) ابن الأثير ٤٥ ج١.
(٣٩) ابن خرداذبة ٥٧.
(٤٠) ابن خلدون ٣٢٩ ج١.
(٤١) كتاب الخراج «طبعة ليدن» ٢٣٩.
(٤٢) وقد رأينا اختلافًا قي قائمة قدامة بين التفصيل والإجمال لعله تطرق إليها من النساخ فمحصناه بقدر الإمكان.
(٤٣) Gibbon’s Roman Empire 1.110.
(٤٤) Porter’s Conts, Hist. of Turkey. Ms.
(٤٥) ابن خرداذبة ١٥٣.
(٤٦) الماوردي ١٧٩.
(٤٧) Einnahmebudget des Abbasiden Reiches.
(٤٨) قدامة ٢٣٩.
(٤٩) محيط المحيط.
(٥٠) ابن الأثير ٢٧٢ ج٥.
(٥١) محيط المحيط.